أغاثا كريستي

عيّنة من الرواية

(للتصفح والاطّلاع)

لَيْلٌ لا يَنْتَهي

بسم الله الرحمن الرحيم

أغاثا كريستي

لَيْلٌ لا يَنْتَهي

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٦٧

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL *Publishers*

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٦٧ بعنوان
Endless Night
Copyright © Agatha Christie Ltd 1967

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الخامسة
٢٠٢٠

في كلّ صبحٍ ينقضي، أو ينقضي مساء،
يولد بعض الناس للشقاء.
كلّ مساءٍ ينقضي، أو ينقضي صباح،
يولد بعض الناس للأفراح،
لكلّ ما لذّ من الأفراح،
ويولد البعضُ لليلٍ لا ينتهي.

وِلْيَم بليك
(١٧٥٧-١٨٢٧)

Every Night and every Morn,
Some to Misery are born.

Every Morn and every Night,
Some are born to Sweet Delight.

Some are born to Sweet Delight,
Some are born to Endless Night.

William Blake
(1757-1827)

الكتاب الأول

-١-

«بدايتي في نهايتي»... ذلك استشهاد طالما سمعتُ الناس يرددونه. ولا يبدو فيه أي بأس، ولكن ما الذي يعنيه حقاً؟

هل توجد أي نقطة يمكن للمرء أن يضع إصبعه عليها ويقول: لقد بدأ الأمر كله في ذلك اليوم، في الزمان الفلاني والمكان الفلاني وبالحادث الفلاني؟

أترى قصتي بدأت عندما لاحظتُ ذلك الإعلان مُعلَّقاً على الجدار في متجر جورج دراغُن للعقارات، معلناً عن بيع بالمزاد لتلك العزبة القيّمة المسمّاة «تاوَرْز» (الأبراج) ومقدّماً تفصيلات الأرض من أميال ومساحات، مع صورة مثالية جداً لمنزل «تاورْز» كما كان من شأنه أن يكون في أوج مجده، ما بين ثمانين عاماً ومئة عام مضت.

لم أكن أصنع أي شيء محدد، بل أتمشى على غير هدى، أقتل الوقت في الشارع العام لبلدة كينغستُن بيشوب (وهي مكان لا أهمية له على الإطلاق). وقد لاحظتُ إعلان البيع. لماذا؟ أكان القدر يوزع الحظ الطيب أم يزرع العناء والشقاء؟

يمكنك أن تنظر إلى الأمر بكلا الطريقتين.

أو ربما أمكنك القول إن الأمر بدأ عندما قابلتُ سانتونيكس، أو

أثناء مناقشاتي معه. يمكنني أن أغمض عينيّ وأرى وجنتيه المتوردتين وعينيه اللتين تفيضان ذكاء، وحركة يده القوية (رغم رقّتها) وهي ترسم المخططات والتصاميم للبيوت. بيت واحد على وجه الخصوص، بيت جميل، بيت من الرائع أن يمتلكه المرء!

وقد بدأ يزداد -وقتها- شوقي إلى بيت، إلى بيت جميل رائع، بيت ما كان لي أن آمُل بامتلاكه أبداً. كان ذلك خيالاً سعيداً نشترك فيه، البيت الذي سيبنيه لي سانتونيكس... لو أنه عاش ما يكفي لذلك.

بيت سأعيش فيه بأحلامي مع الفتاة التي أحببتها، بيت سنعيش فيه (كما في قصص الأطفال الخيالية) «في سعادة دائمة بعد ذلك». وكان كل ذلك خيالاً محضاً، كله هراء، ولكنه أطلق داخلي ذلك التيار الدافق من الشوق، الشوق لشيء لم يكن مُحتمَلاً أبداً أن أملكه.

وإذا كانت هذه قصة حب (وأنا أقسم أنها قصة حب فعلاً) فلماذا لا أبدأ حيث وقعت عيني لأول مرة على إيلي وهي تقف تحت شجر التنّوب في أراضي «بيت الغَجَر»؟

«بيت الغجر»؟ نعم، ربما كان من الأفضل أن أبدأ هناك، في اللحظة التي ارتددتُ فيها عن لوحة إعلان البيع برعشة خفيفة بسبب غيمة سوداء مَرَّت فغطَّت الشمس، ثم طرحتُ سؤالاً دون اهتمام على شخص من أهالي القرية كان يشذب -في مكان قريب- سياجاً شجرياً بطريقة لاهية.

- كيف هو هذا البيت المسمى «تاوَرز»؟

وما زال بوسعي أن أرى الوجه الغريب للرجل العجوز وهو

ينظر إليّ جانبياً ويقول: "ليس هذا هو الاسم الذي نطلقه عليه. أيّ اسم هذا؟"... ثم همهم باستهجان وأضاف: لقد مرت سنوات طويلة منذ أن سكن فيه أناس وأسموه بهذا الاسم.

سألته بعدها ما الذي يسميه هو، ومرة أخرى انحرفت عيناه عني بوجهه الهَرِم المتجعّد بتلك الطريقة الغريبة التي يعمد إليها أهل الريف في عدم التحدث إليك مباشرة والنظر إلى ما خلفك أو إلى الجانب كما لو كانوا يرون شيئاً لا تراه أنت، ثم قال: إنهم يسمونه هنا «بيت الغجر».

- لماذا يُدعى هكذا؟

قال: "لقصة ما... لا أعرف تماماً. هذا يقول شيئاً وذاك يقول شيئاً آخر". ثم استدرك قائلاً: ولكنه -على أية حال- المكان الذي تقع فيه الحوادث.

- حوادث سيارات؟

- كل أنواع الحوادث، ولكن غالباً حوادث السيارات في أيامنا هذه. إنها زاوية قذرة هناك.

- حسناً، إن كان هناك منعطف سيّئ فطبيعيٌّ أن تقع حوادث.

- لقد وضع المجلس القروي إشارة تحذير من الخطر هناك، ولكنها لم تنفع، بل بقيت الحوادث كما هي.

سألتُه: ولماذا الغجري؟

ومرة أخرى راوغتني عيناه، وكان جوابه مبهَماً: بسبب قصة

غريبة. يُقال إنها كانت أراضي غجر ذات يوم، وقد طُردوا منها، فأنزلوا عليها لعنة.

ضحكتُ، فقال العجوز: إيه، يمكنك أن تضحك! إن من الأماكن ما يكون ملعوناً فعلاً، ولكنكم -معشر المتذاكين من أهل المدن- لا تعرفون شيئاً عنها. توجد أماكن ملعونة بالتأكيد، وقد حلّت لعنة على هذا المكان. إن الناس يُقتَلون هنا في مقلع الحجر عندما يأخذون الحجارة للبناء. لقد وقع جوردي المسكين فوق الحافة هناك في إحدى الليالي ودُقَّت عنقه.

- أكان ثملاً؟

- ربما. كان يحبّ الشراب، ولكن الكثير من السكارى يقعون دون أن تُدَقّ رقابهم، أما جوردي فقد دُقت عنقه. هناك، في أراضي «بيت الغجر».

ثم أشار خلفه إلى التلة التي تغطيها أشجار الصنوبر!

نعم، أظن أن تلك كانت البداية. وهذا لا يعني أنني التفتُّ كثيراً لهذا الأمر وقتها، بل حدث فقط أنني أتذكره، هذا كل ما في الأمر. وأحسب -عندما أفكّر بشكل جيد- أنني أضفتُ قليلاً إليه في عقلي. ولا أدري متى سألتُ إن كان يوجد غجر باقون في المنطقة. لا أدري إن كان سؤالي هذا في بداية حديثي مع العجوز أم بعد ذلك، ولكنه قال إنه لم يبقَ الكثير منهم في أي مكان، فقد كانت السلطات تلاحقهم دوماً.

سألته: ولمذا لا يحب أحدٌ الغجر؟

قال بنفور: "إنهم مجموعة لصوص". ثم نظر إليّ بإمعان أكبر وعلّق قائلاً وهو يطيل التحديق بي: أيمكن أن تكون لك أنت دماء غجرية؟

قلتُ إنني لا أعرف لنفسي مثل هذه الدماء. وهذا صحيح، فأنا أشبه الغجر قليلاً، وربما كان هذا هو ما شدني إلى اسم «بيت الغجر». وفكرتُ مع نفسي وأنا أقف هناك مبتسماً بأنه ربما كان لي قليل من الدماء الغجرية.

«بيت الغجر»... صعدتُ الطريق الذي يلتف صعوداً خارج القرية ويخترق الأشجار الداكنة ووصلتُ أخيراً إلى قمة التلة بحيث أستطيع الإشراف على البحر والسفن. كان ذلك منظراً رائعاً، وفكرت -كما يفكر المرء بالأشياء عادة- قائلاً لنفسي: عجباً! كيف سيكون الأمر لو كان «بيت الغجر» بيتي أنا؟

مثل هذا التساؤل فقط... كانت مجرد فكرة سخيفة. وعندما مررتُ ثانية بمُشذِّب السياج قال: إن كنتَ تريد غجراً فعندنا السيدة لي العجوز. لقد أعطاها الميجُر بيتاً صغيراً لتعيش فيه.

- ومن هو الميجر؟

قال بصوت مصدوم: الميجر فيلبوت طبعاً.

بدا منزعجاً تماماً من سؤالي! وقد فهمتُ أن الميجر فيلبوت كان السيد المُطاع محلياً، وأحسب أن السيدة لي كانت أقرب إلى تابعة له يقوم هو بإعالتها، وبدا أن عائلة فيلبوت قد عاشت كل حياتها هناك وكانت تدير المنطقة نوعاً ما.

وعندما تمنيت للرجل نهاراً طيباً واستدرتُ للذهاب قال: إن لها آخر بيت في هذا الشارع. ولعلك تراها خارج البيت، فأولئك الذين في عروقهم دماء غجرية لا يحبون البقاء داخل البيوت.

* * *

هكذا كنتُ أنا هناك، أتمشى في الشارع وأنا أصفر وأفكر بذلك البيت. وكنتُ قد أوشكت على نسيان ما قيل لي عندما رأيتُ امرأة عجوزاً طويلة القامة سوداء الشعر تحدق إليّ من خلف سياج حديقة. وعرفت -فوراً- أنها السيدة «لي» دون شك. توقفت وتكلمتُ معها قائلاً: لقد سمعتُ أن بوسعك أن تخبريني عن «بيت الغجر» فوق التلة هناك.

حدقت إليّ من خلال طرف شعرها الأسود المُلبَّد وقالت: لا تكوننّ لك أية علاقة بذلك أيها الشاب. استمع إليّ، انسَ أمره. إنك فتى وسيم، وما من خير يأتي من «بيت الغجر»... لن يأتي منه خير أبداً.

- لقد رأيته معروضاً للبيع.

- إيه! نعم، إنه معروض، والأحمق من يشتريه.

- من الذي يُحتمَل أن يشتريه؟

- بعض البنّائين يسعون خلفه... وسيباع رخيصاً، سترى.

سألتها بفضول: ولماذا يباع رخيصاً؟ إنه موقع رائع.

لم تجب على ذلك. فقلت: فلنفترض أن بنّاء اشتراه رخيصاً، فماذا سيفعل به؟

ضحكت مع نفسها، وكانت ضحكة حقودة كريهة، ثم قالت: سيهدم البيت القديم المتداعي وسيبني مكانه طبعاً. سيبني عشرين بيتاً أو ربما ثلاثين... وكلها عليها لعنة.

تجاهلتُ المقطع الأخير من الجملة، وقلتُ قبل أن أمنع نفسي: سيكون ذلك عاراً... عاراً كبيراً.

- آه، لا حاجة بك للقلق. إنهم لن يفرحوا بذلك، لن يفرح بذلك من يشترون ومن يرصفون الآجُرّ والإسمنت. ستزِلّ قدمٌ عن السلّم، وستصطدم شاحنة وهي محملة، وسيسقط لوح حجري عن سطح البيت ويجد ضحيته. والأشجار أيضاً، ستتهاوى في عاصفة مفاجئة. آه، سوف ترى! ما من أحد سيستفيد شيئاً من «بيت الغجر». أفضل شيء لهم أن يتركوه وشأنه. سوف ترى... سوف ترى.

ثم أومأت برأسها بقوة وكررت بهدوء مع نفسها: لا حظَّ لأولئك الذين يعبثون بأرض الغجر، ولم يكن لهم حظٌّ من قبل قط.

ضحكتُ، فقالت فجأة: لا تضحك أيها الشاب. يُخيَّل إليّ أنك ستلاقي بدل الضحك بكاء يوماً ما. لم يسبق أن كان حظٌّ حسن هناك، لا في البيت ولا في الأرض التابعة له.

- ما الذي حصل في البيت؟ لماذا بقي فارغاً طوال هذا الوقت؟ لماذا تُرك ليتهدّم؟

- آخر عائلة سكنت فيه ماتت، كلها.

سألتُ من باب الفضول: كيف ماتوا؟

- من الأفضل عدم الحديث عن ذلك ثانية. ولكن أحداً لم يهتم بالقدوم والعيش فيه بعد ذلك؛ لقد تُرك ليتداعى ويخرب. إنه مَنسيٌّ الآن ومن الأفضل أن يكون كذلك.

قلتُ محاولاً إغراءها: ولكن بوسعك أن تخبريني بالقصة، فأنت تعرفين كل شيء عنها.

قالت: "أنا لا أخوض في أقاويل عن «بيت الغجر»". ثم خفضت صوتها ليصبح كنُواحِ متسوّلة زائفة: سأخبرك بطالعك الآن إن أحببتَ ذلك يا فتاي الجميلَ. نقِّطْ راحتي بالفضة وسوف أرى لك طالعك. أنت امرؤ ستبلغ شأناً عالياً ذات يوم.

- أنا لا أصدق هذا الهراء عن رؤية الطالع، كما أنني لا أملك أيّ فضة... على الأقل لا أملك منها ما أستطيع الاستغناء عنه.

اقتربت مني ومضت قائلةً بصوت فيه محاولة الإقناع: ستة بنسات إذن، ستة بنسات. سأقرأ لك طالعك مقابل ستة بنسات لأنك فتى وسيم ذو لسان ذلق وجاذبية خاصة، وربما كنتَ ستبلغ درجة رفيعة.

أخرجتُ من جيبي ستة بنسات. ليس لأنني أؤمن بأيٍ من هذه الخرافات الحمقاء، بل لأنني أحببتُ -لسبب ما- المحتالةَ العجوز حتى وأنا مدرك لخداعها.

خطفت القطعة النقدية مني وقالت: أعطني يدك إذن. كلتا يديك.

ثم أخذت يديّ بين مخالبها الذاوية وحدقت إلى الراحتين المفتوحتين. بقيتْ صامتة لدقيقة أو دقيقتين تحدق إليهما، ثم أسقطت

يدي فجأة، بل كادت تدفع بهما بعيداً عنها. تراجعت خطوة وتكلمت بصوت أجشّ: إن كنتَ تحبّ مصلحتك فعليك أن تخرجَ من أراضي «بيت الغجر» الآن فوراً ولا تعودَ ثانية! هذه أفضل نصيحة يمكنني تقديمها لك... لا تَعُدْ.

- لماذا؟ لماذا يجب أن لا أعود؟

- لأنك إن عدتَ فستعود للحزن والخسارة وربما الخطر. أرى متاعب سوداء تنتظرك. انسَ أنك رأيتَ هذا المكان أبداً. إنني أحذرك.

- ألم تجدي من بين كل...

ولكنها كانت قد استدارت وابتعدت إلى البيت الصغير. دخلته وصفقت الباب خلفها.

أنا لا أؤمن بالخرافات. أؤمن بالحظ طبعاً، ومن ذا الذي لا يؤمن به؟ ولكني لا أؤمن بالخرافات السخيفة عن بيوت مهدَّمة حلّت عليها اللعنة. ورغم ذلك تولّد في نفسي شعور متململ بأن تلك المخلوقة الشريرة العجوز قد رأت شيئاً ما في كفيّ. نظرت إلى راحتيّ الممدودتين أمامي. ماذا بوسع أي امرئ أن يرى في راحتيه؟ لقد كانت قراءة الكف هراء صرفاً؛ مجرد حيلة لابتزاز أموال المرء.

رفعتُ نظري إلى السماء. كانت الشمس قد غربت وبدا المنظر مختلفاً الآن، فيه نوع من الظلّ... شيء من الخطر. ورأيت أنها مجرد عاصفة تقترب. كانت الريح قد بدأت تهب وأخذت تُسقط الأوراق عن الشجر. صفرتُ للإبقاء على معنوياتي مرتفعة ومشيت في الشارع عبر القرية.

نظرتُ ثانية إلى الإعلان الملصق الذي يعلن عن المزاد لبيع منزل «تاورز»، بل إنني دوَّنْتُ ملاحظة عن تاريخه.

لم أكن قد حضرتُ بيع ممتلكات في حياتي، ولكني فكرتُ مع نفسي بأنني سآتي وأحضر هذا المزاد. سيكون من المثير أن أرى مَن الذي سيشتري البيت... أي أنه سيكون من المثير رؤية من سيصبح مالك «بيت الغجر». نعم، أظن أن هذه هي النقطة التي بدأ عندها الأمر كله.

وخطرت لي فكرة خيالية. سوف آتي وأتظاهر مع نفسي بأنني أنا الرجل الذي سيقدم عرضه لشراء «بيت الغجر»! سأزاود على البنّائين المحليين وسوف ينسحبون وقد خابت آمالهم في شرائه بثمن بخس! أنا الذي سيشتريه، وسأذهب إلى رودولف سانتونيكس وأقول له: "ابنِ لي بيتاً؛ لقد اشتريتُ الأرض". وسوف أجد فتاة، فتاة رائعة، وسوف نعيش فيه معاً بسعادة بعد ذلك.

كنت كثيراً ما أستغرق في أحلام كهذه. ومن الطبيعي أنها لم تكن تُفضي إلى شيء، ولكنها كانت ممتعة. هذا ما رأيته وقتها: المتعة! المتعة، يا إلهي! لو أنني عرفتُ فقط!

* * *

-٢-

كانت المصادفة المحضة هي التي أتت بي إلى منطقة «بيت الغجر» في ذلك اليوم. كنتُ أقود سيارة مُستأجَرة، آخذاً معي من لندن عائلة إلى هناك لحضور مزاد بيع، ولكنه لم يكن لبيع بيت بل لبيع محتوياته. وكان بيتاً كبيراً عند ضواحي البلدة تماماً، وكان بشعاً جداً.

قدت السيارة بالزوجين الكهلين اللذين كانا مهتمين -مما تناهى إلى سمعي من حديثهما- بمجموعة أَوَانٍ منزلية من مُنتجات عجائن الورق... كائناً ما كان معنى عجائن الورق. المرة الوحيدة التي سمعتُ بها هذه العبارة تُذكر أمامي من قبل كانت عندما قالت أمي -في معرض الحديث عن طاسات الجلي- أن الطاسات المصنوعة من عجائن الورق أفضل بكثير من الطاسات البلاستيكية. وقد بدا مُستغرَباً أن يرغب أناس أغنياء بالقدوم إلى هذا المكان لشراء مجموعة من شيء كهذا.

وعلى أي حال فقد خزّنتُ المعلومة بعيداً في عقلي وفكرت بأنني سأراجع مُعجماً أو مصدراً ما لأرى ما هي حقاً عجائن الورق، فلا بد أنها شيء يستحق أن يستأجر الناس سيارةً من أجله ويأتوا إلى مزاد في الريف ليشتروه.

كنتُ أحب معرفة الأشياء. كنتُ -وقتها- في الثانية والعشرين

من عمري، وقد جمعتُ قدراً لا يُستهان به من المعارف بطريقة أو بأخرى. فقد عرفتُ الكثير عن السيارات، وكنتُ ميكانيكياً جيداً وسائقاً فطناً، وقد اشتغلتُ مرة في الخيل في أيرلندا، وأوشكتُ أن أتورط مع عصابة مخدرات، ولكني انتبهتُ للأمر وتركتها في الوقت المناسب. إن وظيفة سائق في شركة فخمة لتأجير السيارات ليست أبداً بالوظيفة السيئة، ففيها أرباح جيدة من الإكراميات، وهي ليست متعبة جداً في العادة، ولكن العمل نفسه كان مثيراً للضجر.

وقد عملتُ مرة في جني الفاكهة في الصيف. ولم يدرّ ذلك العمل الكثير، ولكني تمتعتُ به. لقد جربتُ أموراً كثيرة؛ كنتُ نادلاً في فندق من الدرجة الثالثة، ومُنقذاً على الشاطئ في الصيف، وقد بعتُ موسوعات ومكانس كهربائية وأشياء كثيرة أخرى... بل إنني عملتُ مرة في البستنة في حديقة مُخصصة لدراسة النباتات وتعلمتُ القليل عن الزهور.

على أنني لا أثبتُ أبداً على شيء. ولماذا أثبت؟ لقد وجدتُ كل عمل عملتُه تقريباً عملاً ممتعاً. كانت بعض الأعمال تتطلب جهداً أكبر من غيرها، ولكنني لم أهتم كثيراً لذلك، فلستُ بالكسول حقاً. بل أحسب أن علّتي هي أنني مَلول لا أستقر على حال. أريد الذهاب إلى كل مكان ورؤية كل شيء والقيام بكل عمل... أريد أن أجد شيئاً. نعم، هذا هو الموضوع. أريد أن أجد شيئاً!

منذ أن تركتُ المدرسة أردت أن أجد شيئاً، ولكنني لم أعرف ما الذي سيكونه ذلك الشيء. كان مجرد شيء أتطلع إليه بطريقة غامضة غير قانعة... كان في مكان ما، وعاجلاً أو آجلاً سأعرف

كل شيء عنه. ربما كان فتاة، ولكن ما من فتاة -ممّن قابلتهنّ حتى اليوم- كانت مهمة بالنسبة لي.

لقد انتقلت من أمر إلى آخر منذ أن تركتُ المدرسة. وكان الكثير من الناس يستاؤون من أسلوب حياتي، وأحسب أنهم كانوا ممن يمكنني تسميتهم «مُتمنّي الخير لي». وكان ذلك بسبب عدم فهمهم حقيقة شخصيتي. لقد أرادوا لي أن أوفّر المال وأتزوج فتاة لطيفة ثم أستقرّ في وظيفة جيدة مستقرة... يوماً بعد يوم، وسنة بعد أخرى، إلى أن يشاء الله.

ولكن ليست هذه الحياة بالتي تروق لي! لا بد من شيء أفضل من ذلك، ولا يُعقل أن لا يوجد أمامنا إلّا هذا الأمان الخانع! ورأيت أن من المؤكد -في عالَمٍ استطاع وضع الأقمار الصناعية في السماء وأَخَذَ الناسُ يتبجحون فيه بزيارة الكواكب- أن يوجد شيء يحفزك ويجعل قلبك ينبض بقوة، شيء يستحق أن يبحث عنه المرء في العالم كله ليجده!

أذكر أنني كنتُ أمشي مرة في شارع بوند، وكان ذلك في مرحلة عملي نادلاً، وكان موعد عملي قد اقترب. كنتُ أمشي وأنظر إلى بعض الأحذية في واجهة أحد المحلات، وكانت أحذية أنيقة جداً (كما يقولون في إعلانات الصحف: ما ينتعله الرجال الأنيقون اليوم). وانتقلتُ من متجر الأحذية إلى واجهة المتجر التالي، وكان متجراً لبيع اللوحات، وكانت في الواجهة ثلاث لوحات فقط مرتبة بشكل فنّي وحولها يتثنّى المخمل المتهدل بلون باهت فوق زاوية ذات إطار ذهبي.

وأنا لستُ ممن يفهمون كثيراً في الفن، فقد مررتُ مرة بالمتحف الوطني بدافع الفضول، وقد أصابني بالغثيان تماماً، وقررتُ -وقتَها، في التوّ واللحظة- أن الفنّ ليس لي.

ولكن الصور التي رأيتها وقتها كانت مختلفة بعض الشيء. كانت في الواجهة ثلاث صور، إحداها صورة منظر طبيعي، بقعة جميلة من الريف الذي أزوره يومياً. والأخرى لامرأة رُسمت بطريقة غريبة جداً، لا تناسق في أبعادها بحيث لا يكاد المرء يميز أنها امرأة فعلاً (وأحسب أن هذا ما يسمونه الفن الحديث)! أما الصورة الثالثة فأحسست أنها صورتي!

لم يكن فيها الكثير حقاً، إن كنتم تفهمون قصدي. كانت... كيف أصفها؟ كانت بسيطة نوعاً ما. فيها الكثير من الفراغ وبعض الدوائر القليلة التي يتسع بعضها حول بعض إذا صحّ التعبير، وكل واحدة منها بلون مختلف، ألوان غريبة لا يتوقعها المرء (إلّا أنها -بطريقة ما- عنت لي شيئاً بالفعل). لست جيداً في الوصف، ولكن كل ما أستطيع قوله هو أن المرء تتملكه رغبة جامحة في الاستمرار بالنظر إليها.

اكتفيت بالوقوف هناك وأنا أشعر شعوراً غريباً وكأن شيئاً غير طبيعي قد حدث لي. وتذكرتُ تلك الأحذية الثمينة الرائعة، ورأيتُ أن من شأني أن أحبّ شراءها. أعني أنني ألاقي كثيراً من المتاعب في ملابسي، فأنا أحب أن أرتدي ملابس أنيقة بحيث أعطي انطباعاً حسناً عن نفسي، ولكني لم أفكر جدياً في حياتي أبداً بشراء زوج من الأحذية من شارع بوند، فأنا أعرف الأسعار الباهظة التي يطلبونها،

وربما بلغ ثمن الزوج خمسة عشر جنيهاً. ويقولون إنها مصنوعة يدوياً مما يجعلها تستحق ذلك لسبب ما.

من شأن هذا أن يكون مجرد إضاعة للمال. صحيح أنه طراز راقٍ من الأحذية، ولكن ثمن ذلك الرقي كبير جداً، وأنا لستُ ممن فقدوا عقولهم بعد.

أما هذه اللوحة، فكم ستكلف؟ تعجبتُ لذلك. ماذا لو أنني اشتريتُ تلك اللوحة؟ قلتُ لنفسي: "هل أنت مجنون؟ أنت لستَ من هواة اللوحات بشكل عام". كان هذا صحيحاً تماماً، ولكني أردتُ تلك اللوحة... وبودّي لو تكون ملكي. أود لو أستطيع تعليقها والجلوس للنظر إليها وقتما أشاء، وأن أحس بأنها ملكي أنا!

بدت تلك فكرة مجنونة. وألقيت نظرة على اللوحة ثانية. إن رغبتي أنا في تلك اللوحة لا معنى لها، وقد لا أملك ثمنها على أية حال. والحقيقة أنني كنتُ أملك مالاً في تلك اللحظة بالذات من مراهنة ناجحة على أحد الخيول، ولكن ربما كلّفَتْ هذه اللوحة مبلغاً كبيراً. عشرين جنيهاً؟ خمسة وعشرين؟ ليس في السؤال ضير على أية حال، فلن يأكلوني، أليس كذلك؟

وهكذا دخلتُ وأنا أشعر بشيء من العدوانية تحسباً.

كان كل شيء داخل المحل خافتاً جليلاً، وكان ثمة نوع من الجو الصامت، مع جدران ذات ألوان هادئة وأريكة مخملية يمكن للمرء الجلوس عليها والنظر إلى اللوحات. وجاء لخدمتي رجل أخذ يتحدث بصوت خافت بعض الشيء بحيث يتناسب مع الجو العام،

والغريب أنه لم يَبدُ متفوقاً متعجرفاً كما يبدو أمثاله في متاجر شارع بوند الراقية. أصغى لما قلتُه ثم أحضر اللوحة من الواجهة وعرضها لي على حائط وهو يمسك بها هناك لكي أنظر إليها وأستغرق في ذلك ما أشاء من وقت.

خطر لي عندها -بالطريقة التي يُخمِّن بها المرء أحياناً كيف تكون الأمور بالضبط- أن القواعد التي تنطبق على التجارة في الأمور الأخرى لا تنطبق بنفس الطريقة على تجارة اللوحات، فقد يأتي أحدهم إلى متجر كهذا وهو يرتدي ملابس رثة قديمة وقميصاً بالياً ثم يَظهر أنه مليونير يريد أن يضيف لمجموعته الفنية مزيداً من اللوحات. وقد يأتي وهو يرتدي ملابس رخيصة صارخة الألوان (مثلي تقريباً) ومع ذلك يكون له -بشكل أو بآخر- تعلق شديد بلوحة ما بحيث استطاع أن يجمع المال بطريقة ما من طرق التقشف والاقتصاد.

قال الرجل الذي يحمل اللوحة: إنها مثال رائع عن أعمال الفنان.

سألته بسرعة: كم ثمنها؟

حبس جوابُه أنفاسي عندما قال بصوته الناعم: خمسة وعشرون ألفاً.

أنا بارع تماماً في المحافظة على وجه هادئ كوجه المقامر. لم أُظهر له شيئاً (أو هذا على الأقل ما أظنه). وقد أضاف اسماً بدا لي أجنبياً، وأحسب أنه اسم الفنان الذي رسم اللوحة، وقال إنها قد وصلت إلى السوق لتوّها من بيت في الريف لم تكن لدى ساكنيه فكرة عن حقيقتها.

ومضيتُ في أداء دوري متنهداً فقلت: إنه مبلغ كبير، ولكنها تستحقه. خمسة وعشرون ألف جنيه. ما أرخصها!

- نعم، بالفعل.

ثم تنهد وأنزل اللوحة بكل رقة وأعادها إلى الواجهة. ثم نظر إليّ وابتسم قائلاً: إن لك ذوقاً جيداً.

شعرتُ أننا تفاهمنا جيداً على نحو ما. شكرته وخرجتُ إلى شارع بوند.

* * *

- ٣ -

أنا لا أعرف الكثير عن كتابة الأشياء على الورق... أعني: ليس بالطريقة التي ينفذّها كاتب محترف، فذلك المقطع المتعلق باللوحة التي رأيتها -مثلاً- لا علاقة له بأي شيء آخر. أعني أن شيئاً لم يترتب عليه ولم يؤدِّ إلى أي تطور آخر، ومع ذلك أشعر -على نحو ما- بأن تلك الحادثة مهمة وأن لها موقعاً في مكان ما. لقد كانت واحدة من الأمور التي حدثت معي وعَنَتْ لي شيئاً، تماماً كما عنى لي «بيت الغجر» شيئاً، وكما عنى سانتونيكس لي شيئاً أيضاً.

أنا لم أتحدث عن سانتونيكس كثيراً. ولعلكم عرفتم أنه كان مهندساً معمارياً. وقد كان المهندسون المعماريون شيئاً آخر من الأشياء التي لم تكن لي بها أي علاقة، رغم أنني أعرف بعض الأمور عن مهنة البناء.

التقيتُ بسانتونيكس مصادفةً في معرض تجوالي، وكان ذلك عندما كنتُ أعمل سائقاً أقود الأغنياء في أماكن متفرقة. وقد قادتني مهنتي تلك عدة مرات إلى الخارج، مرتين إلى ألمانيا (وأنا أعرف شيئاً من اللغة الألمانية) ومرة أو مرتين إلى فرنسا (ولي إلمام بسيط بالفرنسية) ومرة إلى البرتغال.

كان زبائني -عادة- من الناس الكهول، ممن يملكون المال والأمراض بكميات متساوية. وعندما تقود سيارتك بأناس كهؤلاء في البلاد فإنك تبدأ بالتفكير بأن المال ليس على تلك الأهمية في نهاية المطاف، بسبب الأزمات القلبية وقوارير الحبوب الصغيرة التي يتعين عليك أن تحملها معك طوال الوقت وغضبك من الطعام أو الخدمة في الفنادق...

إن أغلب من عرفتهم من الأغنياء كانوا تعساء جداً، فلديهم متاعبهم أيضاً: الضرائب والاستثمارات... القلق! هذا ما يقتل أكثرهم. كما أن حياتهم العاطفية ليست طبيعية أيضاً، فهم بين متزوج بحسناء جميلة شقراء لا يأمن أن تخونه مع صديق لها في مكان ما، ومتزوج بامرأة متبرّمة كريهة كالجحيم لا تفتأ تخبره بما ينبغي أن يفعل ولا يفعل...

لا، إنني أفضّل أن أبقى كما أنا: مايكل روجرز الذي يرى العالم بالشكل الذي يروق له! وحياتي لا تعدو أن تكون عيش الكفاف بالطبع، ولكنني اعتدتُ التعايش مع ذلك، فقد كانت الحياة متعة طيبة وكنتُ راضياً بالاستمرار بالحياة الممتعة.

على أية حال دعونا نرجع إلى ما كنتُ أقوله، فقد كان ثمة رجل اعتدتُ أن آخذه بالسيارة إلى الريفيرا. كان له بيتٌ يُبنى هناك، وكان يذهب ليرى كيف يمضي العمل به، وكان سانتونيكس هو المهندس المعماري الذي يتولى أمر البيت.

أنا لا أعرف حقاً جنسية سانتونيكس، فقد ظننتُه إنكليزياً في البداية، رغم أن اسمه كان غريباً لم أسمع به قطّ من قبل. ولكن لا

يبدو أنه كان كذلك، بل أحسبه كان إسكندنافياً من بلد ما. كان رجلاً مريضاً، وقد استطعتُ تمييز ذلك على الفور. كان شاباً أبيض البشرة تماماً ونحيلاً وذا وجه غريب، وجهٍ كان منحرفاً على نحو ما، إذ لم يكن بين شطريه تناظر. وقد كان بوسعه أن يثور في وجه زبائنه. ولئن كنتَ تحسب أنهم يدفعون المال ليكونوا هم المسيطرين الذين يُبرقون ويُرعدون فإن الأمر لم يكن كذلك، فقد كان سانتونيكس هو الذي يسيطر عليهم، وكان واثقاً دوماً من نفسه بينما لم يكونوا كذلك.

وأذكر أن هذا الرجل (زبوني) أخذ يغلي غضباً بمجرد أن وصل ورأى تطور العمل. وقد اعتدتُ سماع نُتَفٍ من الحديث هنا وهناك وأنا أقف قريباً جاهزاً للمساعدة بطريقة السائق الخَدوم. وكان من المحتمل دوماً أن يتعرض زبوني (السيد كونستانتين) لأزمة قلبية أو جلطة. قال وهو يكاد يصرخ صراخاً: أنت لم تفعل كما أوصيتك. لقد أنفقتُ كثيراً من المال، أنفقتُ الكثير جداً منه، وليس هذا ما اتفقنا عليه. سيكلفني هذا أكثر مما حسبت.

أجابه سانتونيكس: أنت مُحقّ تماماً، ولكن المال لا بد من صرفه.

- بل لن يُصرَف... لن يُصرَف! عليك أن تبقى ضمن الحدود التي وضعتُها. أتفهم؟

- إذن فلن تحصل على البيت الذي تريده. أنا أعرف ما الذي تريده، وسيكون البيت الذي أبنيه لك هو البيت الذي تريده. إنني متأكد من ذلك تماماً، كما أنك متأكد منه أنت أيضاً، فلا تستعرض أمامي ما لديك من الاقتصاد السخيف الذي يميز الطبقة الوسطى.

أنت تريد بيتاً ذا جودة عالية، وستحصل عليه، وسوف تُفاخر به أصدقاءك وسيحسدونك عليه. لقد قلتُ لك إنني لا أبني بيتاً لأيٍّ كان. هذا أهم بكثير من المال. إن هذا البيت لن يكون كبيوت الآخرين!

- سيكون فظيعاً، فظيعاً.

- لا، ليس فظيعاً. مشكلتك أنك لا تعرف ماذا تريد، أو ربما كنت تعرف ما تريد حقاً إلّا أنك لا تستطيع تخيّله في عقلك، لا تستطيع رؤيته بوضوح. أما أنا فأعرف. ذلك هو الشيء الذي أعرفه دوماً: ما الذي يسعى إليه الناس وماذا يريدون. إن لديك شعوراً يدفعك لطلب الجودة، وسوف أعطيك الجودة.

قد اعتاد أن يقول أشياء كهذه. وكنتُ انا أقف جانباً وأصغي، وكان بوسعي -بشكل ما- أن أرى بنفسي أن هذا البيت الذي يُبنى هناك بين شجر الصنوبر ويُطلّ على البحر لن يكون بيتاً عادياً. كان نصفه لا يُطلّ على البحر بالمعنى التقليدي، فقد بدا متجهاً نحو الداخل، متطلعاً إلى إطلالة على السماء بين التلال. كان غريباً وغير عادي ومثيراً جداً.

وقد اعتاد سانتونيكس أن يتحدث معي عندما لا يكون لديّ عمل. قال مرة: أنا لا أبني البيوت إلّا لأناس أريد أن أبني لهم.

- أتعني للأغنياء؟

- يجب أن يكونوا أغنياء وإلّا لما استطاعوا الدفع لبناء بيوت، ولكن ما أهتمّ به ليس المال الذي سأجنيه من ذلك. إن البيت وحده لا يكفي، فلا بد له من موقع، والموقع لا يقلّ أهمية عن البيت نفسه.

الأمر أشبه بياقوتة أو زمرّدة. إن زمردة جميلة لا تعدو أن تكون مجرد زمردة جميلة؛ إنها لا تأخذك أبعد من ذلك ولا تعني شيئاً، ليس لها شكل أو مغزى حتى تُركَّب ضمن موقعها في الحلية. ولا بد للحلية من أن يكون لها جوهرة جميلة تكون جديرة بها. إنني آخذ حليتي من الموقع ومنظر الأرض، حيث تكون الحلية موجودة قائمة بحد ذاتها، ولا يكون لها معنى حتى يشمخ بها البيت الذي أبنيه كجوهرة داخل قبضتها.

ثم نظر إليّ وضحك قائلاً: ألا تفهمني؟

قلتُ ببطء: أحسب أنني أفهمك بطريقة ما.

قال وهو ينظر إليّ بفضول: ربما.

سافرنا إلى الريفيرا مرة أخرى فيما بعد، وعندها كان البيت قد أوشك على الاكتمال. لن أصفه لأنني لا أستطيع وصفه بشكل مناسب، ولكنه كان... كان شيئاً خاصاً... وكان جميلاً. كان بوسعي إدراك ذلك. كان بيتاً من شأنك أن تفخر به وتفخر بعرضه على الناس.

وبعدها قال لي سانتونيكس فجأة ذات يوم: بوسعي أن أبني بيتاً لك أنت، من شأني أن أعرف طراز البيت الذي تتمناه.

هززتُ رأسي وقلت صادقاً: أنا نفسي لا أعرف.

- ربما لا تعرف، ولكنني أعرف نيابة عنك. من المؤسف أنك لا تملك المال.

- ولن أملكه أبداً.

- لا يمكنك قول ذلك. إن ولادة المرء فقيراً لا تعني أن عليه أن يظل فقيراً. إن المال مسألة غريبة، فهو يذهب حيث تشتد الحاجة إليه.

- أنا لستُ ذكياً بما فيه الكفاية.

- بل أنت غير طموح بما فيه الكفاية. لم يستيقظ الطموح فيك بعد، ولكنه موجود.

- آه، حسناً، يوماً ما، عندما يستيقظ طموحي وأكسب المال سآتي إليك وأقول لك: ابنِ لي بيتاً.

تنهد وقتها وقال: لا يمكنني الانتظار. لا، لا أملك أن أنتظر. ليس لدي إلّا وقت قصير أعيشه الآن. ربما استطعتُ بناء بيت واحد آخَر أو بيتين، ليس أكثر من ذلك. لا يحب المرء أن يموت شاباً... ولكنه يُضطر إلى ذلك أحياناً!

- سيتعين عليّ أن أوقظ طموحي بسرعة.

- لا. إنك بصحة جيدة وأنت تستمتع بحياتك فلا تغير أسلوبها.

- لا أستطيع تغييره ولو حاولت.

رأيتُ أن ذلك كان صحيحاً وقتها. فأنا أحب طريقة حياتي، وكنت أستمتع بها، ولم يكن في صحتي سوء. لقد نقلتُ الكثير من الناس ممن كسبوا أموالاً، ممن عملوا بجد، وممن يعانون من القرحة ومن أمراض القلب وكثير من الأمراض الأخرى نتيجة العمل بجد. ولم أُرِد العمل بجد. يمكنني تنفيذ كثير من الأعمال ولكن هذا كل ما أنا مستعد لفعله، وأنا لستُ بذي طموح، أو أنني لم أرَ أنني

صاحب طموح. أظن أن سانتونيكس ذو طموح. بوسعي أن أرى أن تصميمه للبيوت وبناءها وتخطيط الرسوم، بالإضافة إلى شيء آخر لم أستطع إدراك كنهه تماماً... كل ذلك قد أطفأ شمعة الحياة لديه، وهو لم يكن رجلاً قوياً أصلاً. كانت تنتابني أحياناً فكرة خيالية بأنه يقتل نفسه قبل أوانه بالعمل الذي مارسه ليحفز طموحه. لم أُرد أن أعمل، كان الأمر بهذه البساطة، فقد كنت لا أثق بالعمل ولا أحبه، ورأيتُ أنه أمر سيّئ جداً ابتكره الجنس البشري لنفسه مع الأسف.

فكرتُ بسانتونيكس كثيراً، فقد أسرَني أكثر من أي شخص عرفتُه تقريباً.

أظن أن واحداً من أغرب الأمور في الحياة هو الأشياء التي يتذكرها المرء، أو يختار تذكّرها بالأحرى. لا بد أن شيئاً داخل المرء يقوم بالاختيار! كان سانتونيكس وبيته أحد الأشياء التي أذكرها، والصورة في شارع بوند، وزيارة البيت المتداعي المسمى «تاورز»، وسماعي بقصة «بيت الغجر»... كل هذه الأشياء كانت هي التي اخترتُ تذكّرها! وأحياناً أتذكر فتيات قابلتهن ورحلات رحلتها إلى بلدان أجنبية في معرض توصيل زبائني. كان الزبائن متشابهين جميعاً، يبعثون الملل، وكانوا يقيمون في نفس النوع من الفنادق ويأكلون نفس النوع من الأطعمة التقليدية.

ما زال لديّ -في داخلي- ذلك الشعور الغريب بانتظار شيء ما، انتظار شيء يُقدَّم إليّ أو يحدث لي... لا أدري أيّ التعبيرين يصف حالتي أفضل من الآخر.

أحسب -حقاً- أنني كنتُ أبحث عن فتاة، عن فتاة من النوع

الملائم... فتاة لطيفة مناسبة أستقرّ معها كما كان يمكن لأمي أو لعمي جوشوا أو لأحد أصدقائي أن يعني بمثل هذا القول. وأحسب أن الأمر يحدث لكل امرئ عاجلاً أم آجلاً، ويحدث بشكل مفاجئ. وأنت لا تفكر -وقتَها- كما يخيل إليك أنك ستفكر: ربما كانت هذه الفتاة التي تصلح لي... هذه هي الفتاة التي ستصبح زوجتي.

أنا -على الأقل- لم أشعر بالأمر على هذا النحو. لم أعرف أن ذلك سيحدث بشكل مفاجئ تماماً عندما يحدث، وأنني سأقول: "هذه هي الفتاة التي خُلقتْ لي وخلقتُ لها، كلياً، وإلى الأبد".

نعم، لم أحلم أبداً بأن الأمر سيكون على هذا النحو. ألم يقل أحد الكوميديين القدامى مرة: "لقد جربتُ الحب مرة، ولو شعرتُ أنه قادم إليّ ثانية لهاجرت"؟ هكذا تماماً كان الأمر معي.

لو أنني عرفت، فقط لو أنني عرفتُ ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك كله لاحقاً لكنتُ هاجرتُ أنا أيضاً! هذا لو توفر لي شيء من الحكمة.

* * *

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت لك قراءة ممتعة وعرَّفَتك بالرّواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية (وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com